قافيةُ التّاء

(٧)

{ الطّويل }

١ أَلا مَنْ لِعَيْنٍ لا تَرى قُلَلَ الْحِمَى ... وَلا جَبَلَ الأَوْشَالِ إلاّ اسْتَهَلَّتِ [١]

---

[١] في الحمدونيّة (ما تَرى)، (وَلا أَبْرَقَ الظَّمْآنِ). قُلَل الْحِمَى: القُلَّةُ من كلّ شيءٍ رَأْسُهُ وأعْلاهُ، وأعْلى الجَبَل، وخصَّ بعضُهم به أعْلى السَّنامِ والرَّأسِ والجَبَل، وقِلالَةُ الجَبَل كَقُلَّتِه؛ وهيَ كالقِمَّةِ، إلاّ أنَّ القُلَّةَ تَجْمَعُ الشَّكْلَ الذي تَكونُ القِمَّةُ أعْلاهُ، وهي تُشْبِهُ قُلَّةَ الماءِ والحالَةُ هذه، وهذه كانت معروفةً بهذه التسميةِ عندَهم، واشتُهِرَت منها قِلالُ اليَمَنِ والأحساء. أمّا القِنانُ (جمعُ قُنَّة) فَهي النُّتوءاتُ البارزَةُ المرتفعةُ في الجَبَلِ، وتكونُ أدْوَنَ من القِمَّةِ أو القُلَّة.

وأمّا الحِمَى، فالذي يقصده الشّاعرُ هُنا هُوَ حِمَى النِّير، وهو حِمًى كُلَيْب وائل في القَديم، ويقَعُ في الجنوب الغربيِّ من دِيار قُشَيْر (العرب/١٤٤)، قالَ ياقوت: "النِّيرُ جَبَلٌ بأعْلى نَجْدٍ شَرقِيُّهُ لِغَنِيٍّ ابْنِ أعْصُرَ وغربيُّه لِغاضِرَة بْنِ صَعْصَعَة بْنِ مُعاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بنِ هُوازن، وحِذاءهُ بالأحساءِ بِوادٍ يُقالُ له ذو يحار، وهذا الوادي يَنعطِفُ من أقاصي النِّير ... وبالنِّيرِ قَبْرُ كُلَيْبِ بْنِ وائل – على ما خبَّرَنا بعضُ طَيِّئٍ – عَلى الْجَبَلَيْنِ، قالَ: وهو قُرْبَ ضَرِيَّة" (البلدان: النِّير)، ويردُ في البيتِ التّالي

أمّا جَبَلُ الأَوْشالِ، فَلَم أقِفْ لَه على تعريفٍ في مصادر البلدان، ووجدْتُ الجاسِرَ قالَ: "قد يَكونُ هذا الاسمُ ليسَ عَلَمًا، وإنّما هو جَبَلٌ تكثُرُ فيهِ أوْشالُ الماء؛ هذا إذا لَمْ يَكن الاسمُ مُحَرَّفًا" (العرب/١٤٤)، وتابَعه الفيصَل (شعراء قشير ٢/٧٤، ديوانه/٣٧). والوَشَلُ: الْمَاءُ القَليلُ يَتحَلَّبُ؛ وذلكَ إذا تَكوَّنَ سَفْحُ الجَبَلِ من التُّرابِ والصُّخور غَيْرِ المتَّصِلَةِ بَعْضِها ببعْضٍ، فعِنْدَما ينْزِلُ المطَرُ يَختَزِنُ التُّرابُ شيئًا منهُ، ويتغلغَلُ الماءُ في التّرابِ حتّى يَصِلَ حَدَّ الصّخر الصّلب، فيَنْزَلِقَ عنه إلى أسْفَلَ مُنْحَدِرًا حتّى يَجِدَ مَخرَجَه أسْفَلَ السَّفْحِ عِنْدَ أصولِ الجَبَلِ مِمّا يُحاذي الوادي. وقد رَوى ياقوت عن أبي منصور قالَ: "رأيْتُ في البادِيَةِ جَبَلاً يَقْطُرُ منه في لِحْفٍ من سَقْفِه ماءٌ فيَجتَمِع في أسفَلِه، يُقالُ لَهُ الْوَشَلُ. وقالَ الجوهريُّ: وشَلٌ اسمُ جَبَلٍ عظيمٍ بِناحِيَةِ تِهامَةَ، وفيهِ مياهٌ عذْبَة ... وقالَ أبو عُبيدِ اللهِ السَّكونيُّ: الوشَلُ ماءٌ قريبٌ من غَضُورَ وَرَمّان شَرْقِيَّ سَمِيراءَ"؛ ولِحْفُ الجَبَلِ أصْلُه (البلدان: الوشَل)، ولعلَّ هذا الجبلَ هُوَ المقصودُ بعَيْنِه، فَسَمِيراءُ هذه تقدَّمَ ذِكْرُها في حديثِ طُلَيْحَةَ الأسديِّ المتنبّي (انظر الهامشَ الأوّل في المقطوعة البائيّة الرّابعة – أكناف الشّباب).

واستَهلَّتِ العَيْنُ: دَمَعَتْ، ومِثْلُها انْهَلَّتْ عَيْنُه وَتَهَلَّلَتْ، وتكونُ بمعنى سالَت بالدّمعِ إنْ أغْزَرَتْ، انظر (اللسان: هلل).

٢ وَلا النيرَ إلاّ أسْـــبَلَتْ وَكَأنّها عَلَى رَمَدٍ باتَتْ عَلَيْهِ وَظَـــلَّتِ [١]

٣ لَجُوجٍ إذا لَجَّتْ، بَكِيٍّ إذا بَـكَتْ بَكَتْ فَأَدَقَّتْ فِي الْبُكا وَأَجَـــلَّتِ [٢]

٤ كَما هَتَنَتْ طَرْفاءُ ناشَتْ غُصونَها جَنوبٌ وَقَدْ كانَتْ مِنَ اللَّيلِ طَـلَّتِ [٣]

---

(١) في العرب وديوانه وشعراء قُشَير (رَبَدٍ)، والصّوابُ ما أثبتناهُ. وقدْ تقدَّمَ ذِكْرُ النّيرِ في الهامش المتقدِّمِ (الخِمـى)، أمّا الرَّمَدُ فهُوَ ألَمٌ يُصيبُ العيْنَ بانْتِفاخٍ واحْمِرار، ونعرفُ له اليوْمَ أنواعًا منها الرَّمَدُ الرَّبيعيُّ. وأسْبَلَتِ العَيْـــنُ سالَ دَمْعُها، ومن المعروفِ أنّ الأرْمَدَ والرَّمْداءَ يُثيرُ الدّمعَ في عُيونِهما أقلُّ أثَرٍ من ريحٍ أو غُبارٍ أو ضوءٍ زائـــدٍ وهّاج

(٢) العيْنُ اللجوجُ: التي دَمْعُها لَجوجٌ؛ تلكَ التي تتمادى في البُكاءِ وتأبى أنْ تنصرِفَ عنهُ، قالَ أبو ذؤيب الهـــذليُّ: (اللسان: لجج)

فإنّي صَبَرْتُ النّفسَ بَعْدَ ابْنِ عَنْبَسٍ فَقَدْ لَجَّ من ماءِ الشُّؤونِ لَجوجُ

أمّا بَكِيٌّ؛ فهيَ بمعنى بَكّاءة، وأدَقَّتْ وأجَلَّتْ أي أقَلَّتْ وزادتْ، فهي إذَنْ لا تنْقَطِعُ عن البُكاءِ، إنّما يَخِـفُّ دَمْعُها قليلاً ثُمَّ يَزدادُ شيئًا فشيئًا

(٣) في ديوانه (جَنوبُ)، هَتَنَت السّماءُ: صَبَّتْ ماءها وأغْزَرت مَطرها، وإذا كَثُرَ دَمعُ العينِ شُبِّهَ عندَهم بانْسِـكابِ القَطْرِ، وانْدِلاقِ الماءِ من مُزادَةٍ لَمْ يُحْكَمْ خَرْزُها، أمّا الطَّرْفاءُ، فَجَماعَةُ الطَّرَفَةِ، نوعٌ مِـــنَ الشَّـــجَرِ؛ قـــالَ في اللسان: "الطَّرْفاءُ من العِضاه، وهُدْبُهُ مثلُ هُدْبِ الأَثْلِ، وليسَ له خشبٌ، وإنّما يُخرِجُ عِصِيًّا سَمْحَةً في السَّماءِ، وقد تتحمَّضُ بهِ الإبلُ إذا لَمْ تَجِدْ حَمْضًا غَيْرَه" (طرف)، فيكونُ تشبيهُهُ لانْهِمالِ الدّمعِ من العَيْنِ هُنا بانْهِمـــارِ قطراتِ الطَّلِّ عن أغصانِ الطَّرْفاءِ حينَ تُحرِّكُ أغصانَها الرّيحُ الجَنوبُ، ولو لَمْ تَكُن أغصانُ الطَّرَفَـــةِ مســـتَدِقَّةً سَمْحَةً صاعِدَةً في السّماءِ لَما كانَ تشبيهُهُ دَقيقًا، لأنّ كونَها كذلكَ يَجْعَلُ حَرَكَةَ أعْلى القَطَراتِ مَكانًـــا إلى أسْفَلَ تُحرِّكُ القطَراتِ دُونَها، وهكذا تتسايَلُ القطَراتُ من أعلى إلى أسْفَلَ متحدِّرَةً مُتلاحِقَةً في انْسِيابٍ وتتابُعٍ. أمّا قَوْلُهُ (ناشَتْ غُصونَها)، فعَلى تشبيهِ ما تفعَلُه الرّيحُ الجنوبُ بهذه الأغصانِ من تحريكِها بما تفعَلُـــه الأنْعـــامُ والظِّباءُ من نَوْشِ الأغْصانِ؛ فكِلاهُما يُسبِّبُ حركَةً خفيفَةً لا عُنْفَ فيها ولا صَخَبَ؛ فكأنّهُ جعلَ للرّيـــحِ مـــا للظِّباء وغيْرِها .

ونَقولُ : "طَلَّتِ" أي أصابَها الطَّلُّ، أو نَدِيَتْ، أمّا "طُلَّ"، فهوَ من مَطْلولِ الدَّمِ، ولا تَقومُ هذه مَكـــانَ تلْـــكَ، والضَّمُّ فيها لِمَعْنى (نَدِيَتْ) لَحْنٌ (هكذا وردَ في هامشِ تعليقاتِ الهجريّ) .

٥ أَلا قاتَلَ اللهُ الْحِمى مِنْ مَحَـــلَّةٍ وَقاتَلَ دُنْيانا بِها كَيْفَ وَلَّـــتِ (١)

٦ غَنِينا زَمانًا بِالْحِمى ثُمَّ أَصْبَحَتْ عِراصُ الْحِمَى مِنْ أَهْلِها قَدْ تَخَلَّتِ (٢)

٧ وَنادى الْمُنادي بِالْفِراقِ فَقَوَّضُـوا بُيوتًا تُرى أَطْنابُها حَيْثُ شُـدَّتِ (٣)

٨ شَدَدْتُ بِثَوْبي حَشْوَةً ضَبَبْتُ بِها يَدُ الشَّوْقِ يَوْمَ الْبَيْنِ حِينَ احْزَأَلَّتِ (٤)

٩ وَقُلْتُ لأَصْحابي غَداةَ فِـراقِها : وَدِدْتُ الْبُحورَ الْعامَ بِالنّاسِ طَمَّتِ (٥)

١٠ فَنَنْقَطِعَ الدُّنْيا الَّتي أَصْبَحَتْ بِهِمْ كَمِثْلِ مُصاباتٍ عَلى النّاسِ عَمَّتِ (٦)

١١ وَلَكِنَّما الدُّنْيا كَفَيْءِ غَمـــامَةٍ أَظَلَّتْ بِغَيْمٍ ســاعَةً وَاضْمَحَلَّتِ (٧)

---

(١) في ديوانه (وَلَتْ)، الْمَحَلَّةُ والْمَحَلُّ كالْمَنْزِل والْمَنْزِلَةِ، ويكونُ الْمَحَلُّ والْمَحَلَّةُ الْمَوْضِعَ الذي يُحَـــلُّ فيـهِ، ويكونُ الْمَحَلُّ مَصْدَرًا، وكِلاهُما بِفَتْحِ الحاءِ لأَنَّهما من حَلَّ يَحُلُّ، أَمّا مَحِلٌ فَهُوَ من حَلَّ يَحِلُّ أي وجبَ.

(٢) في الحمدونيّة والعرب (كَيْفَ أَصْبَحَتْ)، وفيهما وفي شعراء قشير وديوانه (عِراصُ اللِوَى)، وَهُـوَ تَصحيـفٌ ظاهِرٌ. والعِراصُ والْعَرَصاتُ جَمْعُ عَرَصَةٍ، وهيَ السّاحةُ والفِناءُ. ويُقالُ : "خَلّى الأَمْرَ وتَخَلّى مِنْهُ وَعَنْهُ وَخالاهُ: تَرَكَهُ" (اللسان: خلا).

(٣) في العرب وشُعراء قُشير وديوانه (تُرى أَطْنابَها) ولا وَجْهَ للْخِطاب هُنا، ويُقوّي ما أَثْبَتْناهُ قولُه (شُدَّت) بالبنـاء للمجهول. والبيتُ وما يليهِ من أبيات تُظْهِرُ أَنَّ القصيدَةَ قِيلَتْ في ارْتِحالِ بَني عمِّهِ عن الدِّيارِ التي كانَ يُقيمُ فيها إلى مَرابِعَ أُخرى في ديارِ قُشَيْر. وتقويضُ البُيوت طَيُّها بعْدَ فَكِّ أَطْنابها إيذانًا بالرَّحيلِ.

(٤) شَدَّ ثِيابَهُ عَلى خَصْرِهِ لِيُقِلَّ من إيلامِ كَبِدِه، والْحَشْوَةُ هُنَا الْحَشَا أَوِ الأَحْشاء. أَمّا (ضَبَبْـــتُ) فـــهي بمَعـــنى أَمسَكْتُ بها تَمامًا، وجعَلْتُها في قَبْضَتِها في شِدَّة (اللسان: ضبث)، والبَيْنُ الْفِراقُ. أَمّا الاحْزِئْلالُ؛ فهو الارتِفاعُ في السَّيْرِ والأَرْضِ، واحزَأْلَتِ الإبلُ إذا اجتَمَعَتْ ثُمَّ ارتَفَعَتْ عَنْ متْنِ من الأَرْضِ في ذَهابِها (اللسان: حـــزَل). وهذا يسبقُ غِيابَها عَنِ النَّظَرِ؛ لأَنَّها عَمّا قليلٍ يُخْفِيها مُنْخَفَضٌ من الأَرْضِ بعدَ ارتِفاعِها، وهذه عادَةً ما تَكـــونُ لَحظَةَ النَّظْرَةِ الأَخيرَةِ التي يُلْقيها العاشِقُ.

(٥) يَتَمَنّى لَو حَلَّ طوفانٌ بالنّاسِ جَميعًا.

(٦) فِراقُها كأَنَّه نهايةُ الدّنيا عِنْدَه، لكنّه يتمنّى لو كان ذلك على الحقيقةِ.

(٧) مقصودُه إلى أَنَّ السَّعادَةَ قصيرَةُ الْعُمرِ؛ في حين يُسيطِرُ الحزْنُ في الأَعَمِّ الأَغْلَب، وواقِعُ الأَمْرِ أَنَّ هذا كان نَهْجًا معروفًا عند شُعراء العرب، ولهذا تجِدُ شاعِرَهُم يقولُ:

يَطولُ الْيَوْمُ لا أَلْقاكِ فيهِ وَحَوْلٌ تَلْتَقي فيهِ قَصيرُ

وتَرى هذا المعنى عنْدَ شُعراء عَصرِنا هذا، فتَجد مَحمود درويش يقولُ في رثاء راشد حسين إنَّه كـــانَ (طويـــلاً كَنَشيدٍ ساحِلِيٍّ وَحَزين)، والجامِعُ بينَ هذه الأَقوالِ في مُجْمَلِها هي أَنَّ الزَّمنَ الموضوعيَّ قدْ يَختَلِفُ إحســـاسُ النّاسِ به، فتختَلِفُ قيمَته الفيزيائيّة مِنْ ثَمَّةَ، فهذا يَرى الليلَ طويلاً بسببِ حُزْنِه وأَرَقِه، ويَراهُ الآخَرُ قصيرًا لِفَرَحِهِ وحَلاوَةِ ما يذوقُه فيه.

١٢ أَلا قاتَلَ اللهُ الْحَمامَةَ غُـــدْوَةً عَلَى الْفَرْعِ ماذا هيَّجَتْ حينَ غَنَّتِ

١٣ تَغَنَّتْ غِناءً أَعْجَـمِيّاً فَهَيَّجَتْ جَوايَ الَّذي كانَتْ ضُلوعِيْ أَجَنَّتِ

١٤ نَظَرْتُ بِصَـحْراءِ الْبُرَيْقَيْنِ نَظْرَةً حِجـازِيَّةً لَوْ جُنَّ طَرْفٌ لَجُنَّتِ[١]

١٥ أَقولُ لِعُثْمانَ بْنِ وَهْبٍ وَقَدْ رَأَى سُحُوقِيْ جَرَتْ فِيها دُموعِيْ فَبَلَّتِ[٢]

١٦ أَلْكِنْيْ إِلى طَيّا، أَلْكِنِيْ لِحاجَةٍ مِنَ الْحاجِ قَدْ هَمَّتْ بِنَفْسِيْ وَهَمَّتِ[٣]

١٧ بِآيَةِ ما سـارَتْ، فَلَمّا تَمَكَّنَتْ حَبائِلُها مِنْ شُـعْبَةِ الْقَلْبِ حَلَّتِ[٤]

١٨ وَقالَـتْ: حَلَلْنا وادِيًا ذا طُرَيْفَةٍ وَكانَتْ مَطايانا مِنَ السَّـيْرِ كَلَّتِ[٥]

١٩ فَحَلَّتْ مَحَلاًّ لَمْ يَكُنْ حُلَّ قَـبْلَها وَهانَتْ مَـراقِيهِ لِطَيّـا وَذَلَّتِ[٦]

---

(١) صحراءُ البُرَيْقَيْنِ: رَمْلَةٌ في بلاد قشير، مُثَنّى البُرَيق (ياقوت: البريقان)

(٢) في ديوانِهِ (عُثْمانَ بنِ وَهْبٍ)، ولا يستقيمُ. وعُثْمانُ بْنُ وَهْبٍ أَحَدُ أصحابِ الشّاعر، لكنّني لَمْ أَقِفْ لَهُ على ذِكْرٍ في المصادِر. أمّا (السُّحوقُ)، فهيَ مَجاري الدَّمْعِ مِمّا يُجاورُ العَيْنَ، وسَحَقَت العَيْنُ الدَّمعَ: حَدَرَتْهُ (اللسان: سَحَق).

(٣) أَلْكِنْي إِلَيْها؛ أي أَرْسِلْني إِلَيْها، أَلْحِقْني بِها، أَبْلِغْها بِأَمْرِي (اللسان: ألك). أمّا الْحاجُ فَجَمْعُ حاجَةٍ. وأمّا قولُه (هَمَّتِ) الأُولى، فهيَ من مَعنى همَّتْ بِهِ، أي أرادَتْهُ، وَهَمَّتْ بِنَفْسي أي هَمَّتْ بِإِتْلافِها، أمّا الأُخْرى فَهِيَ مِنْ مَعْنى الْهَمِّ، أي أَسْكَنَتْها الْهَمَّ والْكَمَد (اللسان: هَمَم).

(٤) الشُّعْبَة: ما شُعِبَ من الْجِلْدِ لِيَكونَ حَقِيبَةً أو مُزادَةً؛ والشَّعْبُ هُنا بِمعنى خَرْزِ الْجِلْدِ بالْمِشْعَبِ لِيُخاطَ (اللسان: شعَب)؛ فكأنّه أرادَ أنّها لَمّا استَحْكَمتْ علائِقُ هَواها من قَلْبِه، وأَوْثَقَتْهُ بِحِبالِ الْوَصْلِ والعِشْقِ حَتّى تَمكَّنَتْ من فُؤادِه، رَحَلَتْ فَحَلَّتْ ما كانتْ أَوْثَقَتْ عُراهُ.

(٥) الطَّرِيفَةُ ضَرْبٌ من الكَلأ، وهي من النَّباتِ أَوَّلُه الذي تستَطرِفُه الأَنْعامُ فَتَرْعاهُ، وقيلَ سُمِّيَت بذلك لِطرافَتِها وكَرَمِها، وأَطْرَفَتِ الأَرْضُ: كَثُرَت طريفَتُها، وأرضٌ مَطروفَةٌ: كَثيرَةُ الطَّرِيفَة (اللسان: طرف)، والقصدُ هُنا إلى الوادي الْمُعشِبِ الخَصيبِ، أمّا الكَلالُ فالتَّعَبُ.

(٦) الْمَراقي: جَمعُ (مَرْقى)؛ ما يُرْتَقى من الأرض، وهي مرتَفَعاتُها. وقولُه (هانَتْ ... وذَلَّتْ) يُشيرُ بِهِ إلى أنّ الصِّعابَ ذُلِّلَتْ لِحَبيبَتِه في رِحْلَتِها، وإلى أنّ الْمُقامَ طابَ لَها في مُرْتَحَلِها عندَ ذلكَ الوادي. وثَمَّةَ ما يُمكِنُ لَحْظُهُ هُنا في قَوْلِه (طَيّا) بدلَ (رَيّا)، وهو أنّ القصائدَ التي غلبَ على إحساس الشّاعر فيها هَجْرُ طَيّا، أو التألُّمُ لِفِراقِها وفِراقِ دِياره بعدَ أنْ تزوَّجَتْ، قدْ غلبَ عليْها هذا الاسمُ (طَيّا)، في حين غلبَ (رَيّا) على قصائد حنينِه إليْها، وتشوُّقِهِ إلى نَجْدٍ لِيَراها، ولعلّ الاسمَ (طَيّا) يَحْمِلُ في ثَناياهُ شَيْئًا من الطَّيِّ الذي يدلُّ على النّهاياتِ دائمًا، وطَيِّ الْمَفاوز والرَّحيلِ والفِراق!

٢٠ خَلِيلَيَّ ، في طَيّا أَقِلاّ مَـــلامَتي ... فَقَدْ بَخِلَتْ طَيّا عَلَيْنا ، وَضَنَّتِ[١]

٢١ لَعَمْري، لَئِنْ أَحْبَبْتُ طَيّا، وَآثَرَتْ ... عَلَيَّ الْعِدا، ما سُنَّةَ الْعَدْلِ سَنَّتِ

٢٢ أَظَلُّ أُمَنّيها الْفُؤادَ سَـــفاهَةً ... إِذا ما أَنطَوَتْ نَفْسيْ عَلى اليَأْسِ مَلَّتِ[٢]

٢٣ فَوَجْدِيْ بِطَيّا وَجْدُ أَشْمَطَ راعَهُ ... بِواحِـــدِهِ داعي الْمَنايا أَلَمَّتِ[٣]

٢٤ وَوَجْدِيْ بِطَيّا وَجْدُ بِكْرٍ غَـريرَةٍ ... عَلى والِـــدَيْها فارَقاها فَجُنَّتِ[٤]

٢٥ وَوَجْدِيْ بِطَيّا وَجْدُ هَيْماءَ حُلِّئَتْ ... عَنِ الْماءِ كانَتْ مُنْذُ خَمْسَيْنِ ضَلَّتِ[٥]

---

(١) جَرى في البيتِ على عادَةِ الشُّعراء في نِداءِ الصّاحِبَيْن، وقد تقدَّم الحديثُ عن ذلكَ. وأضيفُ هُنا أنَّ من عاداتِ الرّاحلينَ أنْ يكونوا جَمْعًا زُرافاتٍ لا وحْدانًا، ويبدو أنّ أدْنى عَدَدٍ للسَّفْرِ عندَ العربِ في الأحوالِ العاديَّةِ كانَ ثلاثةً؛ نَلْمَحُ مِثْلَ هذا في قولِه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ: (إذا كُنْتُمْ ثلاثةً فأَمِّروا واحِدًا منكُم)، ولهذا جرَتِ العادَةُ بِمُناداةِ الاثنَيْنِ أكثرَ من نِداءِ الواحِدِ والجَماعَةِ عند الشُّعراء !

(٢) هاءُ المفعولِ في (أُمَنّيها) تَحتَمِلُ العَوْدَ إلى (طَيّا) في البيتِ المتقدِّم؛ فيَكونُ المعنى على هذا أنّه أقامَ دَهْرًا يُمَنّيها مِلْكَ فُؤادِه، وأنّه يُقِرُّ بِكَوْنِه سَفيهًا لِما فَعَل، كما تَحتَمِلُ العَوْدَ إلى (نَفْسي) المُتَأخِّرَةِ في عَجُزِ البيتِ؛ فيكونَ المعنى على هذا الوجهِ أنّه ظلّ يُمَنّي نَفْسَهُ بِما في فُؤادِهِ من حُبٍّ، وبأنّهُ قَدْ قَرُبَ وصالُهُ؛ لكنَّهُ كانَ سَفيهًا إذْ آمَنَ بذلكَ، ولَمْ يأمَنْ غَوائلَ الدَّهرِ وصُروفَه، حتّى تَمَلّكَ نفسَهُ اليأسُ فَمَلَّت أمانيَّهُ المعسولةَ الخادِعَة، ويُقوّي هذا الوجْهَ أنّهم سَلَكوا في شِعرِهم مِثلَ هذا؛ فيقولُ شاعِرُهم (أعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمال). لكنَّ الأوّلَ أقْوى وأقْرَبُ؛ من حيثُ يدلُّ على مِقدارِ خُضوعِهِ لِحَبيبتِه، وما كانَ يدْلُ لَها من أمانيَّ؛ لكنَّه لَمْ يَقْوَ على مِلْكِ ما يُحقِّقُ بِهِ وُعودَه !

(٣) الأشْمَطُ من الرِّجال: الذي وَخَطَ الشَّيْبُ في شَعْرِه، وهوَ الذي بلغَ من العُمْرِ مَبْلَغًا يَحتاجُ فيهِ إلى أنْ يستَظْهِرَ بِغَيْرِه عَلى مَتاعِبِ الدُّنيا، ويطمَئِنَّ إلى أنَّ لَهُ مُعينًا عَلى صُروفِها، وقارَبَ على سِنٍّ لا يُنْجِبُ فيها، وهذا المعنى الذي قصدَ إلَيْهِ الشّاعرُ حينَ قال: (بواحِدِهِ)؛ أي بابْنِه الوَحيدِ. ومؤنَّثُهُ الشَّمْطاءُ (اللسان: شَمَط)، وهو في البَيْتِ يُصَوِّرُ مَدى حُزْنِه وفَجيعَتِه بِفراقِ رَيّا .

(٤) البِكْرُ من النِّساءِ: التي لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ، وحَديثَةُ السِّنِّ بِمَعنى المَعْنى؛ والغَريرَةُ من النِّساءِ تُقابِلُ الغِرَّ مِنَ الرِّجالِ؛ أي لَمْ تَختَبِرِ الدُّنْيا بَعْدُ؛ فَهيَ في حاجَةٍ إلى غَيْرِها؛ ولا سيَّما أبَوَيْها (اللسان: غرر) .

(٥) الْهَيْماءُ: النّاقَةُ التي أصابَها الْهُيامُ؛ وهو شِدَّةُ العَطَش، وحُلِّئَتْ: صُدَّتْ وأُبْعِدَت، والْخَمْسان مُثَنّى الْخَمْسِ؛ وهوَ وُرودُ الماءِ بَعْدَ خَمْسةِ أيّام، والعَرَبُ تَقولُ: ثِلْثٌ ورِبْعٌ ... إلى تِسْعٍ، ولا تَقولُ: عِشْرٌ، ولذلكَ ثَنّى الشّاعرُ الْخَمْسَ لِيَدُلَّ على انقِطاعِ النّاقةِ عن وُرودِ الماءِ بَعْدَ عَشَرَةِ أيّام، (اللسان: هيم، حلا، خمس). والبيْتُ يُذكِّرُ بقولِ ابْنِ الطُّثُرِيَّةِ :

فَما وَجْدُ مِلْواحٍ مِنَ الْهِيمِ حُلِّئَتْ ... عَنِ الْماءِ حَتّى جَوْفُها يتصَلْصَلُ
تَحومُ وَتَلْحاها الْعِصِيُّ وَحَوْلَها ... أقاطِيعُ أنْعامٍ تَعُلُّ وتَنْهَـــلُ
بِأَكْثَرَ مِنّي غُلَّـــةً وَتَشَهِّيًا ... إلَى الْوِرْدِ إلاّ أنَّني أتَجَمَّـــلُ

٢٦ إذا سافَتِ الأَعْطانَ، أوْ شَمَّتِ الثَّرى رَماها وَلِيُّ الْماءِ عَنْهُ ، فَـــوَلَّتِ[١]

٢٧ وَإنْ أشْرَفَتْ مِنْ آكُمِ الْمَاءِ مَـيْفَعًا لَوَتْ رِجْلَها الْيُسْرى بِالأُخْرى فَحَنَّتِ[٢]

٢٨ فَحَنَّتْ حَنِينًا يُطْرِبُ الصَّبَّ ذا الْهَوى وَقَدْ نَهِلَتْ مِنْهُ بِيَـــأْسٍ وَعَلَّتِ[٣]

٢٩ وَلا وَجْـــدُ بِكْرٍ حُرَّةٍ أَرْحَبِيَّةٍ تَرودُ حَوَالِي طِفْلِها قَدْ أَتَـــمَّتِ[٤]

٣٠ أُتِيحَ لَها فِـــيْما تَروحُ وَتَغْتَدي خُشارِمُ مِنْهُ رُعْبُها فاشْـــمَعَلَّتِ[٥]

٣١ وَجاءتْ مُفَجَّأةً تَرى فَرْثَ طِفْلِها بِسِـــرْحانِهِ أَظْفارُها قَدْ تَدَمَّتِ[٦]

---

(١) سافَتِ الأَعْطانَ: تَنَشَّقَتْ رائِحَةَ مَبارِكِ الإبِلِ حَوْلَ الْمَاء (اللسان: سوف، عطن)، ووليُّ الْماءِ: الذي يَتَوَلّى أَمْرَ سَقْيِ الإبِلِ، أيْ حلْأَها عن الماءِ فانْتَهَرَها أوْ رَماها بِحَجَرٍ فوَلّت .

(٢) أشْرَفَتْ: نَظَرَتْهُ من مُكانٍ مُشْرِفٍ عليْهِ، وهُوَ الْمَيْفَعُ (اللسان: يفع)، والآكُمُ جَمْعُ أكَمَة، وهيَ أشْرافٌ في الأرْضِ كالرَّوابي (اللسان: أكم)، وأمّا لَيُّها رِجْلَها اليُسْرى باليُمْنى فَكِنايَةٌ عَنْ تَحَسُّرِها عَلى صَدِّها عَن الماءِ مَعَ شِدَّةِ عطَشِها، وهي تَرى غَيْرَها يَرِدُهُ فَلا يُصَدُّ مِثْلَها، أمّا حَنينُها؛ فَصَوْتٌ حَزينٌ تُطْلِقُهُ النّاقَةُ حِينَ تُرْحَلُ تارِكَةً فَصيلَها وراءها، أو تَمُرُّ بِديارٍ كانَتْ فيها قَبْلُ. والجديرُ بالذِّكرِ هُنا أنَّ غَزِلي البادِيَةِ أكثَروا في شِعرِهم من تَصويرِ حَنينِ الإبِلِ؛ كَما فَعلوا بِهديلِ الحَمامِ، ووظّفوهُ في تصويرِ لواعِجِهم وزفَراتِهم الحرّى حينَ يفارقونَ دِيارَهم ومحبوباتِهم .

(٣) الصَّبُّ: العاشِقُ (اللسان: صبب)، والنَّهْلَةُ: الشَّرْبَةُ الأُولى، تَليها الْعَلَّةُ (اللسان: نهل، علل) .

(٤) بدأ الشّاعرُ في هذا البيتِ مع ما يليهِ (٢٦-٣١)باستِخْدامِ التّصويرِ باللوْحَةِ، فَهُوَ يَرْسُمُ لِوَحْدِهِ صورَةً مُقابِلَةً باستِخْدامِ أسلوبِ التَّدْويرِ؛ حيثُ يؤدّي كلُّ بيتٍ جُزئيَّةً من جُزئيّاتِ اللوْحَةِ التي يرسُمُها، وهو بذلكَ يُحاولُ أنْ يستَقْصِيَ التّفصيلاتِ التي يَراها مؤدِّيَةً للحالةِ التي يريدُ تصويرَهـا. أرْحَـبُ: قبيلَـةٌ مـن هَمْـذانَ تُنْسَـبُ إلَيْـها النَّجائبُ الأرْحَبِيَّةُ (اللسان: رحب)، تَرودُ: تروحُ وتغتَدي غَـيْرَ آمِنَـةٍ؛ فـهيَ تظـلُّ تبحَـثُ عَنـه (اللسـان: رادَ)، أتَمَّت النّاقةُ، وهيَ مُتِمٌّ: دَنا نَتاجُها (اللسان: تَمَم) .

(٥) الْخُشارِمُ: الأصْواتُ، وخَشْرَمَتِ الضَّبُعُ: صوَّتَتْ في أكْلِها (اللسان: خشرم)، اشْمَعَلَّت: ارْتاعَتْ فَأَجْفَلَتْ مُسرِعَةً (اللسان: شَمْعَل)، وفي هذه الأبيات صورَةٌ لِناقَـةٍ أتَمَّـتْ حَمْلَـها ودَنـا نَتاجُـها، تَرعـى وطِفْلَـها فَراعَـها صَوتُ ضَبُعٍ أجْفَلَتْ منهُ، ثُمَّ عادَتْ تَبحَثُ عَنْ طِفْلِها فَوَجَدتْ أشْلاءه متناثِرَةً .

(٦) مُفَجَّأةً: عَظيمَةَ البَطْنِ بسببِ تَمامِ حَمْلِها؛ أي ثقيلةَ الحركةِ (اللسان: فجأ)، والفَرْثُ: حَشْوُ الْمَعِدَة (اللسان: فرث)، والسِّرْحانَةُ: أنْثى السِّرحانِ؛ الذِّئبَةُ (اللسان: سرح) .

٣٢ تَهُزُّ مِنَ الْوَجْدِ الْحَصيلَ ، وراعَها صُوَيْتٌ خَفِيٌّ خَلْفَها فَاقْشَعَرَّتِ[١]

٣٣ فما وَجَدَتْ مِنْ طِفْلِها غَيْرَ شِلْوِهِ شَماطِيطَ لَمْ تَقْنَعْ بِها حَيْثُ شَمَّتِ[٢]

٣٤ فَظَلَّتْ تُراعي شِلْوَها مُسْتَحِنَّةً إِذا سَلِيَتْ رَجْعَ الْحَنينِ اسْتَهَلَّتِ[٣]

٣٥ وَلا أُمُّ أَحْوى شادِنٍ عَطَفَتْ لَهُ قُبَيْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، أَوْ حِينَ دَرَّتِ[٤]

٣٦ فَلَمّا سَقَتْهُ الدَّرَّ أَحْجَمَ قائِمًا إِلَيْها قَليلاً ، ثُمَّ وَلّى وَوَلَّتِ[٥]

٣٧ إِلى مَرْتَعٍ قَدْ عَوَّدَتْهُ وَمَهْمَلٍ سَليلٍ ، فَظَلَّتْ يَوْمَها حِينَ ظَلَّتِ[٦]

٣٨ فَلَمّا دَنَا الإِظْلامُ أَدْرَكَ سَمْعُها صُوَيْتاً خَفِيًّا راعَها فَاحْزَأَلَّتِ[٧]

---

(١) الْحَصيلُ: الذَّنَبُ غَزيرُ الشَّعر (اللسان: حصل) .

(٢) الشِّلْوُ: كلُّ مسْلوخَةٍ أُكِلَ مِنها شيءٌ فبقيَّتُها شِلْوٌ (اللسان: شلا)، والشَّماطيطُ: القِطَعُ الْمُتناثِرة، واحِدُها شِمْطِيطٌ وشُمْطوطٌ وشِمْطاط (اللسان: شمط) .

(٣) ظَلَّتْ تُراعي شِلْوَها: أي ظَلَّتْ قائِمَةً عليهِ تشُمُّهُ وتُلاحِظُه بينَ حَنينٍ وبُكاء .

(٤) الْحُوَّةُ: السَّوادُ في الشَّفَتَيْنِ، والأَحْوى ومؤنثه حَوْاءُ (اللسانُ: حوا)، وهذه الصِّفَةُ إِنّما جاءت من سُمْرَةِ الطّينِ الذي خُلِقَ منه البشَرُ، وهِيَ الْحُوَّةُ التي مِنها حَوّاءُ، والأُدْمَةُ التي مِنها آدَمُ (ع). أَمّا الشّادِنُ فَوَلَدُ الظَّبْيَةِ (اللسان: شدن)، وأَمّا دَرَّتِ الشَّمْسُ فَطَلَعَتْ (اللسان: ذرر) .

(٥) الدَّرُّ: الْحَليبُ، وأَحْجَمَتِ الْمَرأَةُ الْمَولودَ: أَرضَعَتهُ أَوَّلَ إِرْضاعَةٍ، وَحَجَمَها هُوَ وأَحْجَمَها: مَصَّ ثَديَها (اللسان: حجم) .

(٦) الْمَرْتَع: الْمَكانُ الْمُخصِبُ الذي تَرْتَعُ في الأَنعامُ (اللسان: رتع)، والْمَهْمَل: الذي ترتادُه الْهَوامِلُ من الإِبل؛ وهي التي لَيسَ لَها راعٍ يَرعاها، فهيَ ضَوالُّ لا رعاءَ لَها، ولا مَنْ يُصْلِحُها ويَعْتَني بِها، وفي الْمَثَل: "اخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بالْمَهْمَل" (اللسان: هَمل)، والسَّليلُ: الوادي الواسِعُ (اللسان: سلل) .

(٧) احزَأَلَّت: انْضَمَّ بَعْضُها إِلى بَعضٍ من الْخَوفِ (اللسان: حزل)، ونَحنُ نَرى مِثل هذا في الْحَيَواناتِ والبشَرِ جَميعًا؛ وتعليلُه أَنَّ الْخَوفَ يسبِّبُ صَدْمَةً عصبيَّةً تَتقلَّصُ عَضَلاتُ الْجِسْمِ بسببِها؛ ويَنْجُم عن هذا التَّقلُّصِ اجْتِماعُ الأَطْرافِ إِلى الجِسْمِ، فضلاً عن انقِباضِ الأَحشاءِ والمعِدَةِ وتقوُّسِ الظَّهْرِ، فكأَنَّ الْمُحزَئِلَّ يَتَكَوَّرُ كالكُرَةِ في اجتِماعِ جسَدِه .

٣٩ تَمارَتْ عَلى جَرْسٍ، فَنَصَّتْ بِجِيدِها ... وَكانَتْ عَلى طُولِ الْحَلاءِ أَدَلَّتِ[١]

٤٠ وَدارَتْ بِأَدْنى عَهْدِهِ، ثُمَّ راجَعَتْ ... أَماقِيَّ تَكْلى، مَا تَجِدْ مَا أَضَلَّتِ[٢]

٤١ وَلا وَجْدُ أَعْرابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِها ... صُروفُ النَّوى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ[٣]

٤٢ يَشُدُّ عَلَيْها الْبابَ أَحْمَرُ لازِمٌ ... عَلَيْها رُقاقِيْ قَرْيَةٍ قَدْ أَبَنَّتِ[٤]

٤٣ تَمَنَّتْ أَحالِيبَ اللِّقاحِ وَضَيْعَةً ... بِنَجْدٍ، فَلَمْ يُقْدَرْ لَها ما تَمَنَّتِ[٥]

---

(١) تَمارَتْ: شَكَّتْ وتوجَّسَتْ خِيفَةً، وهو من الْمِرْيَةِ (اللسان: مرا)، الْجَرْسُ: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ (اللسان: جرس)، نَصَّتْ بِجِيدِها (أو جِيدَها): رَفَعَتْ عُنُقَها في اسْتِقامَةٍ (اللسان: نصص)، وهذا فِعلٌ أَلِفْنا رؤيَةَ الحيواناتِ البريَّةِ تفعَلُه حينَ تُؤنِسُ ما يُرعِبُها صوتًا أو حَرَكَةً؛ وذلكَ أذْعى لَها لِكَي تَرى ما حَوْلَها، وتَسْمَعَ ما يصدُرُ من أصواتٍ بعيدًا عن الأرضِ التي قد تنقُلُ أصواتَ أقدامِ الحيواناتِ البعيدةِ المتراكضةِ. الْحَلاءُ والْحَلاءَةُ: الأرضُ التي تَقشَّرَ سَطْحُها، على التَّشبيهِ بالْحَلأ والْحَلى مَقصورًا ومهموزًا، وهو القشرَةُ على جِلْدِ الكُوعَيْنِ أو الرُّكْبَتَيْنِ (اللسان: حلأ)، وأدلَّت: عَهِدَت ذلكَ الْمَكانَ فأصْبحت لا تَخافُ الرَّعيَ فيهِ، وهو من الإدْلالِ (اللسان: دلل).

(٢) الأماقيُّ: جَمْعٌ لإحْدى الألفاظِ الدّالَّةِ على مؤخَّرِ العيْنِ أو مُقدَّمِها، وهي: "مُؤْقٌ ومَأْقٌ ومُوقٌ"، وَجَمْعُ "الْمُؤْقِي وَالْمَأْقِي" مَآقٍ على القِياسِ، وبعضُهُم يترُكُ هَمْزَها، ويجْمَعُها عَلى أمْواقٍ إلاّ في لغةٍ من قلَبَ فقال: آماق (اللسان: مأق)، ويدلُّ في البيتِ عَلى أنَّها ضلَّتْ عنْ شادِنِها بسببِ الصَّوتِ الذي راعَها، ثمَّ أخذتْ تدورُ في الْمَرْعى فلَم تجِدْهُ، فعاوَدَها الْبُكاءُ.

(٣) لعلَّ في هذا البيتِ وما يليهِ (٤١-٤٤) ما يذكِّرُ بأبْياتٍ مَيْسونَ بنتِ بَحْدَل حينَ قالَتْ:

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأَرْواحُ فيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ

وَلُبسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عَيْني ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبسِ الشُّفُوفِ

(٤) الأَحْمَرُ من الرِّجال: البَخيلُ الذي لا يُعطِي إلاّ بعدَ إلْحاحٍ، وهو غَيْرُ ذِي السِّلاحِ (اللسان: حمر)، والرُّقاقُ: الطَّريقُ الضَّيِّقُ النّافِذُ وغيرُ النّافذِ، وهو دونَ السِّكَّةِ - يُذكَّرُ ويؤنَّث (اللسان: زقق)، وأبَنَّ فُلانٌ بالْمَكانِ إذا لَزِمَهُ وأقامَ فيهِ (اللسان: بنن)، وفي هذا البيتِ يصِفُ حالَ الأعْرابيَّةِ التي كانت تَملِكُ حرِّيَّتَها في الانطِلاقِ بِلا قُيودٍ؛ ثُمَّ أصْبَحتْ رهينَةَ جُدرانِ بيتٍ يشدُّ بابَهُ عليها بَخيلٌ مَقيتٌ مُلازِمٌ للبابِ لا يُفارِقُه؛ ويسدُّ عليها أزقَّةَ القريَةِ التي بها تُقيمُ فلا يأذَنُ لَها بالْخُروجِ.

(٥) أحاليب اللِّقاح: ما تَدِرُّه النّاقَةُ التي تُنْتَجُ في أوّلِ الرّبيعِ، فَلا تَزالُ لِقاحًا حتّى يُدِرَّ الصّيفُ عَنها، واللَّقْحَةُ: النّاقَةُ من حينِ يسْمَنُ سَنامُ ولَدِها، لا يزالُ ذلك اسْمَها حتّى يمضيَ لها سبعَةُ أشْهُرٍ ويُفْصَلَ ولَدُها، وذلك عند طُلوعِ سُهيل، وهي في هذه المدَّةِ أغزَرُ وأطْيَبُ ما تكونُ لَبَنًا (اللسان: لقح)، ولهذا شبَّهوا الْحَديثَ الْحَسَنَ بهِ إذْ يُشابُ بماءٍ باردٍ من شُقوقِ الصَّخْرِ وَعَسَلٍ، قال شاعرهُم:

وإنَّ حَديثًا منكِ لَو تَبْذُلِينَهُ ... جَنَى النَّحْلِ في أَلْبانِ عُوذٍ مَطافِلِ

مَطافيلَ أبْكارٍ حَديثٍ نِتاجُها ... يُشابُ بِماءٍ مِثْلِ ماءِ الْمَفاصِلِ

أمّا الضَّيْعَةُ، فَكُلُّ أرضٍ مُحصِبَةٍ لَها مَنْ يَقومُ عليها فيعزِقُها ويَزرَعُها (اللسان: ضيع).

٤٤ إذا ذَكَرَتْ ماءَ الْعَـــظاةِ وَطِيْبَهُ وَبَرْدَ الْحَصا مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ أَرَنَّتِ [١]

٤٥ بِأَكْبَرَ مِنْ وَجْـــدٍ بِطَيّا وَجِـدْتُهُ غَداةَ ارْتَحَلْنا غُدْوَةً واطْمَـــأَنَّتِ [٢]

٤٦ لَها فَخِذا بُخْـــتِيَّةٍ بَخْـــرَبِّةٍ وســـاقٌ إذا قامَتْ عَلَيْها انْمَهَلَّتِ [٣]

٤٧ وَخَـصْرانِ دَقّا في اعْتِدالٍ، وَمَتْنَةٌ كَمَتْنَةِ مَصْـــقولٍ مِنَ الْهِنْدِ سُلَّتِ [٤]

٤٨ وَعَـيْنا أَحَمِّ الْمِدْرَيَيْنِ وَمَضْحَكٌ إذا ما جَرَتْ فيهِ الْمَساوِيكُ زَلَّتِ [٥]

---

(١) ماء الْعَظاة: ماءٌ لِبَنِي كَعبِ بْنِ أبي بَكر، وهو في الأصلِ (الْعَظاءة) (البلدان: العظاءة) لَم يذكُرهُ الجاسر، قُلْـتُ: لعلّها مُحرَّفَةٌ عن (العِضاه)، والْمَأثورُ أنّهم كانوا يقلبونَ الضّاد ظاءً أحيانًا، والعكسُ ثابتٌ عنهم، ولعلّ هـــذه أوفقُ للمعنى؛ حيثُ يريدُ أنْ يُصوِّرَ شَوقَ الأعْرابيَّةِ إلى ديارِها بكلِّ ما فيها، وتَمَنّيها ذلكَ كلّه على شِدَّةِ ما فيهِ وقسْوَتِه؛ لأنّه يظلُّ أطيبَ عنْدَها من حَياةِ الْمَدَنيَّةِ بما فيها من ألوانِ العيشِ الرّغيدِ، والعِضاهُ كلُّ شَجَرٍ ذي شَوكٍ (اللسان: عضه)، وأرنّت: أعْوَلَتْ في بُكائِها وصوَّتَتْ (اللسان: رنن).

(٢) اطْمَأنّت: استوطَنَت وأقامَت في المكانِ الذي ارتَحَلتْ إليْهِ، أو رحَلَ هُوَ عَن الدّيار وظلّت هـــي في ديارِهـــا مقيمَةً (اللسان: طمن).

(٣) الْبُخْتِيَّةُ من الإبلِ: تلكَ التي أصْلُها من خُراسان، والإبلُ الخراسيَّةُ تُنْتَجُ من بَيْنِ عَرَبيَّةٍ وفالِجٍ، وهـــي معروفَـــةٌ بطولِ أعناقِها، وضَخامَةِ خَلْقِها، وامْتِلاءِ أفْخاذِها (اللسان: بخت)، والبَخْتَريَّةُ مِنها: ما كانَ يَمشي الْبَخْتَريَّـــةَ، (اللسان: بَخْتَرَ)، وهذا أدْعى لامتِلاءِ نَحْضِها والتِفافِ فَخِذَيْها. أمّا قولُه: (انْمَهلّت)، فَهُوَ مـــن الاعتِـــدالِ في القامَةِ (اللسان: مهل).

(٤) الْخَصْران: مُثَنّى الْخَصْرِ، وهو الخاصِرَةُ أيضًا، ما بيْنَ الْحَرقَفَةِ والْقُصَيْرى (اللسان: خصر)، والْمَتْنتان: لَحْمَتانِ مَعصوبَتانِ بَيْنَهُما صُلْبُ الظَّهْرِ (اللسان: متن)، وهُما نسيجانِ عضليّانِ طويلانِ يَمتدّانِ على جـــانِبَي العَمـــودِ الفقريِّ من أسْفَلِ الظّهرِ حتّى الرّقَبَة، والشّاعر يقصد هُنا اعتِدالَ القوامِ؛ فهاتانِ العضلَتانِ تَكونانِ سَبَبًا في بَقـــاءِ الظّهرِ مُعتَدِلاً، وقد يصيبُهما شَدٌّ أو ارتِخاءٌ فيسبّبانِ فيهِ التّقوُّسَ والانْحِناء، وهذا ما نُلاحِظُه أحيانًا عِندَ بعـــضِ الْمُسنّينَ؛ والمتنَةُ المعتدلةُ تدلُّ على الشّبابِ.

(٥) أَحَمُّ الْمِدْرَيَيْنِ: أسْوَدُ القَرْنَيْنِ من الغِزلانِ والظِّباءِ، والْمِدرى: القَرْنُ يَدَّري بِهِ الظّبْيُ أو الغَزالُ ضَرباتِ غَيرِه من الحَيواناتِ من مثلِه، أو الْمُفترِسَة (اللسان: حمم، درى)، والْمَضْحَكُ: يقصد به هُنا إلى وصْفِ أسنانِها بآيَةِ ذِكرِه الْمَساويكَ بَعْدَه، وإذا زلّت المساويكُ عنِ الأسْنانِ كانَ ذلكَ دليلاً على نَظافَتِها ونَصاعَتِها وَملاستِها وصِغَرِهـــا واستِوائِها، والمساويكُ جَمْعُ مِسواكٍ، هو عُودٌ يؤخَذُ من شَجَرِ الأراكِ، ثُمَّ تُلحَـــى قشـــرَةُ مُقَدَّمِـــه فيُصبِـــحُ كالفُرشاةِ، تُنظّفُ به الأسنانُ.

٤٩ وَداجٍ عَلى اللَّبّاتِ وَحْفٍ كَأَنَّهُ عَناقِيدُ جُونٌ مِنْ كُرُومٍ تَدَلَّتِ [١]

٥٠ فَإِنْ يَكُ هذا عَهْدَ طَيّا وَأَهْلِها فَهذا الّذي كُنّا ظَنَنّا وَظَنَّتِ [٢]

٥١ وَكانَتْ رِياحٌ تُحْسِرُ الْحاجَ بَيْنَنا فَقَدْ عَمِيَتْ أَرْواحُ طَيّا وَصَمَّتِ [٣]

٥٢ خَلِيلَيَّ، في طَيّا أَعِينا أَخاكُما فَقَدْ بَخِلَتْ طَيّا عَلَيْنا وضَنَّتِ [٤]

٥٣ قَطَعْتُ بِطَيّا الْهَمَّ والْفَقْرَ والْغِنَى وَطَيّا مُنى نَفْسِي إِذا ما تَمَنَّتِ [٥]

٥٤ وَطَيّا أَرُوحُ الْجَيْبِ، مَهْضومَةُ الْحَشا كَمُزْنَةِ صَيْفٍ هَجَّرَتْ فاسْتَهَلَّتِ [٦]

---

(١) الدّاجي: الشَّعْرُ الأَسْوَدُ (اللسان: دجى)، اللّبّاتُ: جَمْعُ لَبَّة، وهيَ مَجْمَعُ الصَّدْر والنَّهْدَيْنِ مِمّا يَلي الْعُنُقَ (اللسان: لبب)، ولاستِواءِ اللَّبَّةِ ومَلاسَتِها أُطْلِقَت على ما يُحيطُ فُوهَةَ البُرْكانِ من صَهيرٍ أَمْلَسَ صُلْبٍ في الإنْجليزيّة، وعلى الحِمَمِ بِعامَّة (Lava). أمّا الوَحْفُ فالشَّعْرُ الْكَثيفُ الْحَسَنُ الْمُرَجَّلُ، وشَبَّهَهُ بَعدُ بِعَناقيدِ الْكَرْمَةِ السُّودِ (اللسان: وحَف) .

(٢) هكذا في الرّواياتِ، ولعلّها (فَما ذا الّذي كُنّا ظَنَنّا وظَنَّتِ) .

(٣) الْحاجُ: جَمْعُ حاجَةٍ، والحاجةُ في كلامِ العربِ أصْلُها الحائِحَة حذفوا منها الياء؛ فلمّا جَمعوها أعادوا إليها ما حذفوا منها، فقالوا: حاجةٌ وَحَوائج (اللسان: حوج)، والأَرْواحُ: جَمْعُ ريح، وأصلُها بالواو (اللسان: روح)، وقد تقدَّم بيتُ ميسون بنت بحدل. وهاهنا لَطيفَةٌ تقتَضي الذِّكرَ؛ وهي أنَّ الألفاظَ التي تُطْلَقُ على الإنسانِ مثلَ: (الرُّوح، والنَّفْس، والنَّسَمَة)، مأخوذةٌ في أصلِها من ثلاثِ كلماتٍ تُقابِلُها، وهي: (الرّيح/الرّوح، والنَّفَس، والنَّسْمَة)، وكلُّها متعلّقةٌ بالْهَواءِ؛ ولا رَيْبَ في أنَّ الهَواءَ أهمُّ ما يُقيمُ حَياةَ الإنسانِ، ولهذا جَعَلَ اللهُ مِلْكِيَّتَه عامَّةً لا خاصَّة، ثمَّ الْماءُ وملكيَّتُه عامّة وخاصّة، ثمَّ الطَّعامُ وملكيَّتُه خاصَّة؛ ذلك بأنَّ الإنسانَ لا يصبرُ على انقِطاعِ الهَواءِ عنه دَقائق، ويصبرُ أيّاماً على العطشِ، ويصبرُ أسابيعَ على انقِطاعِ الطَّعامِ .

(٤) عَجُزُ هذا البيتِ تكرَّرَ؛ فقد كانَ عَجُزَ البيتِ العِشْرينَ من القصيدَة، ويَكادُ صَدرُه يكون كذلك .

(٥) في ديوانِه والعربِ (والغِنَى)، والبيتُ بهذا لا يستقيمُ مَعناهُ؛ إذ يُداخِلُه التّناقُضُ. وقطَعَ بِها الهمَّ والفقرَ والغِنى؛ أي لَم يشْعُرْ بِهذه الثّلاثةِ حينَ كانَ حبلُ الوِصالِ قائمًا بينَهما، والْغِنى والْغَناءُ سِيّان .

(٦) أَروجُ الْجَيْبِ: طَيِّبَةُ الرّائحةِ، وقد يُقصَدُ بها على الْمَجاز طِيبُ الذِّكْرِ (اللسان: أرج)، ومهضومَةُ الحشا: أي دَقيقَةُ الْخَصرَيْنِ، لا عظيمةَ البَطْنِ (اللسان: هَضم)، مُزْنَةُ الصَّيْفِ: السّحابَةُ الرّقيقَةُ البيضاءُ الْخَفيفَةُ، وهجَّرَتْ: أي ظَهَرت وقْتَ الْهاجِرَةِ، وهي نصفُ النّهار، وسارَتْ في السّماءِ (اللسان: هَجر)، واستهلَّت: سالَ قَطْرُها .

٥٥ إذا جَلَسَتْ بَيْنَ الْغَواني عَشِـيَّةً عَلى أَيِّ حالٍ : عاطِلاً أَوْ تَحَلَّتِ [١]

٥٦ سَمَتْ نَحْوَها الأَبـصارُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ بَدِيًّا ، وَعادَتْ نَحْوَها ، فَتَثَنَّتِ [٢]

٥٧ خَليلَيَّ هذي زَفْرَةُ الْيَوْمِ قَدْ مَضَتْ فَمَنْ لِغَدٍ مِنْ زَفْـرَةٍ قَدْ أَطَلَّتِ

٥٨ وَمِنْ زَفَـراتٍ لَوْ قَصَـدْنَ قَتْلَنِي تَقُـضُّ الَّتِي تُبْـقَى الَّتِي قَدْ تَوَلَّتِ

تَخريجُ الأبياتِ :

قـالَ الهجَـريُّ: "زَيـادَةٌ للصِّمَّـةِ بْـنِ عبـدِ اللهِ، أوَّلُـها: ألاَ"، ثُـمَّ رَوى البيتَيْـنِ الأوَّلَ والثّاني. قالَ: "أنْشَدَني الشِّـهْرانِيُّ لِمضـاء بـنِ مُضْرَحِـيٍّ بـنِ الثُّوَيْـبِ بـنِ الصِّمَّـةِ ...". تعليقات الهجَريّ-الحمادي (مقطوعة ١٧٥). وفي حماسة الخالديّين: "أنْشَدَني عَدّاء بـنُ مضاء مِن ولَدِ الثُّوَيْبِ ابنِ الصِّمّة بن طُفَيْلِ بنِ زيدِ بنِ ثَور بنِ سَوادةَ بنِ قُرَّةَ بـنِ سَلَمَة الخَيْر بنِ قُشَيْر (مقطوعة ١١٥)، الأغاني ٥/٤٣٥، تجريد الأغاني ق١ج٢/٧١٧، سمـط الـلآلي ٢/٧٣٦، التّذكـرة الحمدونيّـة ٦/ ٧١-٧٢، المرزوقـي ٣/١١١٠، التـبريزي ٣/٧٤، المجتنى ٦٤، ٨٣، أمـالي الزَّجّـاجي/ ١٥، ٢٤، وقـد أكّـد نسبَتَها إليـهِ أيضًـا الْعَوْتَبيُّ الصُّحـاريُّ؛ إذ أوْرَدَ منـها أبياتًـا ثلاثًـا في مواطِنَ ثَـلاثٍ مـن كِتابِـه (الإبانـة ١/٢٥٩، ٢/٩٥، ٢/١٥٢)، وصرَّحَ بالاسـمِ فيـها جَميعًـا. محـاضرة الأبـرار ٢/٢٤٨، تزيين الأسواق ١/ ٢٣١. الحماسة الشّجريّة ٢/٥٥٩-٥٦٠، ونسبَ بعْضَها لعلـيِّ بـنِ عُمَيرَة الجَرْمِيّ، ومنها في معجـم البلـدان خمسـةُ أبيـاتٍ (الحِمَـى)، وثلاثـةٌ منـها نُسِبَتْ لامرأةٍ فيه (رَيّان)، ورُوِيَتْ ثمانيةٌ لأعرابيّ في مصارع العشّـاق/ ١٦٧، العـرب/١٥٥-١٦٠، دِيوانه المطبوع/٣٨

---

(١) الْغَواني: جَمعُ غانِيَةٍ، وهي الْحَسْناءُ التي غَنِيَتْ بحُسْنِها ودَلِّها عَنِ الْحَلْيِ (اللسان: غنى)، والعاطِلُ من النِّساءِ: التي لَم يَكُن عليْها حَلْيٌ، وأمّا الْحالي، ومنه تَحلَّت، فهي التي عَليها حَلْيٌ (اللسان: حلى، عطل).

(٢) الْوَهْلَةُ: أوَّلُ الرُّؤيَةِ، والْمَرَّةُ من الْوَهَلِ، وهي من وَهِلَ يَوْهَلُ وَهَلاً (اللسان: وهل). وَالْبَدِيءُ والبَدِيُّ الأوَّلُ، ومنه قولُهم: "افْعَلْهُ بادِئَ بَدْءٍ، على فَعْلٍ، وبادِيَ بَدِيءٍ، على فَعيلٍ، أي أوَّلَ شَيءٍ، والياءُ من بادِيْ ساكِنَةٌ في موضِعِ النَّصبِ؛ هكذا يتكلّمونَ به (اللسان: بدأ)